عرب اسبانيا

علومهم وصنائعهم (١)

فاق عرب اسبانيا الفرنج في العلوم والصنائع والاخلاق كبذل النفس والكرم مع ما امتازوا به من معرفة قدرها وعزتها الناشئة عما اعتيد عندهم من تلاقي الخصمين بالسلاح ولذا حلف بعض قواد العساكر ان لا يعود الى مقابلة الخليفة عبد الله حين سخر من لحيته وقد أبرّ في يمينه وابقت الفرنج ملوك قسطيله ونوارة بصداقة عرب اسبانيا واكرامهم للضيوف فذهب عدة منهم الى قرطبة يستشيرون حكماءها المشتهرين بالطب وكان هؤلاء العرب في سائر الجهات منقادين لأبي العائلة مجلين للشيوخ ذوي غيرة شديدة على مراعاة العدل افقرهم كاكبرهم في الاعتناء بحفظ العائلة من العار لا يمنع خمول اصل احدهم من الوصول الى ارقى المناصب غير معوّلين في اعتبار الشخص على شرف حسبه ونسبه فقط بل على اعتبار فضائله واخلاقه لانهم لم يكونوا اذ ذاك باقين على ما كانوا عليه زمن فتح اسبانيا من الاضرار بالحرية البشرية لتغلب الدين على عقولهم بل كانوا متفننين في النهم والعمل بالقرآن الدال على اهمية اكتساب الفضائل والاعمال الصالحة ولذا كان الخلفاء يشوّقون الناس الى الشغل ووقاية الاملاك من العدوان وكان قضاتهم يرون انفسهم كالمحكمين بين الخصوم لا قضاة ولا يجاوزون الرفق بالناس الاّ نادرًا

والذي ساعد هؤلاء العرب على بلوغهم شأو العظمة اتساع العلوم والفنون والفلاحة والصنائع فقد ذاق جميعهم لذة المعارف وتنافسوا في ابتكار ما يمتازون به وكان قرطبة الشعر يرفع قدر نفوسهم وكان لا بد لقضاتهم من حوز معلومات غويصة حتّى يعتبرهم الناس زمن قيامهم بوظائفهم وكانوا يكتبون على جميع المباني الجليلة اسمي المهندس والآمر بالتشييد ويجزلون الثناء على كل ماهر في فن . وقد بلغوا الدرجة العليّة في فنون العمارة والموسيقى والقريض ولذا اقتفى الفرنج اثرهم في اساليب ابنيتهم وزخارفها والتقن عليّ بن زناب اجناس الاصوات وما في الصوت البشري من الوسائل والطرق النغميّة وانشأ في قرطبة مدرسة وركب للعود وترًا خامسًا بعد ان كان باربعة . ومارسوا ضروب الشعر خصوصًا نظم الحكايات المشتملة على نكت مشوّقة فبرع فيها كثير من الرجال و بعض النساء وتعلموا في المدارس علوم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنحو والهندسة والجبر ومبادئ علم الطبيعة والكيمياء الطبيّة

(١) فصل من كتاب العالم سبديو الذي ترجم بارشاد عطوفتلو علي باشا مبارك ناظر المعارف العمومية سابقًا

والتاريخ الطبيعي وهو علم المواليد الارضيَّة الثلاثة وملئت كتبخاناتهم نسخًا منقولة من كتب قدماء العلماء اليونانيين ومن كتب فلاسفة الاسكندريَّة واستمد جربرت بابا رومية آخر القرن العاشر من اسبانيا معارف عجب منها ابناء عصره من النصارى فاتهموهُ بالسحر

وفاقوا غيرهم في الصنائع وعثروا على معارف الرومان والفينيقيين فاستخرجوا بها المعادن المطروقة ومعادن اخرى كمعادن الزئبق والياقوت واستخرجوا من البحر بقرب سواحل الاندلس المرجان وبقرب طراغونة اللؤلؤ واتقنوا صناعة الدباغة ونسج القطن والكتان والنيل وبلغوا اقصى الغايات في صناعة الاقمشة والحرير والصوف ولم يتحدث الناس بالمشرق وسواحل افريقية الاَّ في حسن صناعة نصال السلاح بطليطلة والحرير بغرناطة والسروج والجلود التخنيان بقرطبة ورغب جميع اهل اوروبا كل الرغبة في الجوخ الازرق والاخضر المصنوع بتونيسية والبهارات والسكر بوالنسة واتجروا مع ذلك في نحو الزيت ودودة الصباغة والعنبر الخام والبلور المعدني وهو بلور الصخور والكبريت والزعفران والزنجبيل ولا مانع ان يكونوا استعملوا اوراق الحوالة المسماة بين التجار بالكمبيالة التي عزي ابتكارها الى الامة اللمبردية او استعملوا طريقة غيرها

وكانوا يرسلون بضائع الى تجار بالممالك الشرقيَّة فيرسلون اليهم بدلها نحو العود والفاقلى والكافور والاراك والحمور والبسط الفارسيَّة وبذلوا غاية عنايتهم في الفلاحة وبقيت آثارها في سهل هوسطاة بالنسة وسهل وبغات غرناطة الواصلين بالري الى اقصى درجات الخصوبة وقد ابدعوا في طريقة ري سهل هوسطاة الذي يقسمهُ الى نصفين نهر طونة الذي يصب في البحر قرب والنسة فانهم اوقفوا ماء هذا النهر بجسر مانع على فرسخين من مصبهِ ثم قطعوا منهُ سبعة جداول ثلاثة في شاطئ وار بعة في آخر يفتح كل فرع منها في يوم من الاسبوع بحيث يرتفع الماء الى المستوى الضروري وقسموا كل جدول من تلك الى جداول ثانوية صغيرة يفتح كل منها في ساعة بعد حصول ذلك الارتفاع حتَّى يصل الماء الى اصغر مربع من الارض فكان كل جدول مع فروعهِ على هيئة مروحة ولعدم انحدار ذلك السهل انحدارًا هندسيًّا تدريجيًّا رتبوا لهُ مساقي صغيرة وقناطر عليها مجاري مياه موزعة على المزارع وبالجملة فعلوا بذلك السهل ما استحق بهِ ان يلقب ببستان اسبانيا وصنعوا لما لا يمكن سقيهُ بهذه الكيفيَّة ما يسمَّى لدى العامة بالسواقي وحفظوا مياهها في حياض او جداول يصرف منها عند الاحتياج ونقلوا الى اسبانيا الزراعة بقواعدها العلميَّة من اسيا وكلدة والشام واخذوا يبذرون الحب في الارض بمجرد حصاد ما فيها ويأخذون منها كل سنة

ثلاث حصائد وزرعوا بها الارز والقطن والتوت وغصب السكر والنخل والفستق والموز ودوحة الكاملياء الحمراء والبيضاء وازهارًا وبقولاً نقلت بعد الى جميع البلاد الغربيّة من اوروبا وورد بابونيا

وكان في الجزء الذي يملكهُ المسلمون من اسبانيا ست نخوت وثمانون مدينة كبيرة وثلثمائة مدينة اقل مما قبلها وما لا يحصى من الضياع والقرى والكنور وفي قرطبة وحدها ٢٠٠٠٠٠ بيت و٦٠٠ مسجد و٥٠ مستشفى للمرضى و٨٠ مدرسة كبرى عامة و٩٠٠ حمام سوقي وعدد ساكنيها مليون وبذلك يعلم انها ليست الآن على حالتها القديمة وانهُ لا وجه لاستغراب ما كانت عليهِ من عظيم الثروة والزخرفة اللتين تنافس في اظهارهما عليها الخلفاء الذين وصلوا الى حيازة ما في المملكة من الاموال بترتيب العشور والخراج والجمارك وفردة التجار ويؤخذ من ذلك ان وارد هؤلاء الخلفاء كل سنة يبلغ ١٢ مليونًا و٤٥٠٠٠ دينار من الذهب سوى خمس غنائم الحرب وجزية اليهود والنصارى ومع ذلك كلهِ لا يزال العقل متعجبًا من كثرة ما بذلهُ عرب اسبانيا في مبانيهم فان مسجد قرطبة الباقي الى الآن يضاهي في الفخامة المسجد الاموي بدمشق طولهُ ٦٠٠ قدم وعرضهُ ٢٥٠ قدمًا وفي عرضهِ الايمن ٢٨ صحنًا والايسر ٢٩ صحنًا وفيهِ ١٠٩٣ عمود رخام وفيهِ من جهة الجنوب ١٩ بابًا مبطنة بصفائح من نحاس التوج (نحاس المدافع) واوسطها مرصع بصفائح ذهب وباعلاه ٣ اكر مذهبة فوقها رمانة من العسجد وقناديلهُ ٤٧٠٠ احدها في المحراب من الذهب الابريز ويوقد فيهِ كل سنة ٢٤٠٠٠ رطل زيتًا و١٢٠ رطلاً من العنبر والعود الفاقلي وكانت هذه المدينة تضج مضيئة وحاراتها مطيبة بما يلقى فيها من الزهور مع استعمال الالحان المطربة في المنتزهات والميادين العامة

وقد اسلفنا الكلام على مدينة زهرة (الزهراء) وقصرها الذي بناهُ الخليفة عبد الرحمن الثالث على شواطىء نهر الوادي الكبير على فراسخ قليلة من قرطبة ولم يبقَ لهُ أثر وحكى فيهِ مؤرخو الاسلام ما نصهُ ان قباب القصر المذكور كانت على ٤٣٠٠ عمود من انواع الرخام كلها منقوشة بالمربعات على حد سواء وكانت ارضهُ وحيطانهُ مرخمة بترابيع الرخام المختلف الالوان بأظرف واجمل تشكيل وكانت حيطانهُ مبطنة ايضًا بتلك الكيفيّة وسقوفهُ منقوشة باللازورد والذهب وكان في مساكنهِ العظيمة فساقي مياه عذبة تنصب وتغيب في احواض من الرخام الابيض والبشم المتنوعة اشكالهُ وكان يشاهد في قاعة جلوس الخليفة فسقيّة يخرج من وسطها صورة بجعة من ذهب معلقة فوق رأسها لؤلؤة عظيمة وكانت تلك البجعة قد صنعت في مدينة القسطنطينيّة واما اللؤلؤة فهي هديّة اهدى بها السلطان ليون الى الخليفة وكانت قد

انشئت حول القصر بساتين واسعة وبني في وسطها ايضاً قصر منفرد لكي يستريح فيهِ الخليفة بعد رجوعهِ من القنص وكان هذا القصر المعدّ للاستراحة مبنيًّا على اعمدة من رخام ذوات تيجان مذهبة وكان ينبع في وسطهِ عين ماء صاف كالزئبق بياضاً وتنصب من فم الدستية في اناء مستدير مصنوع من البرفير

ولم تنفق جميع اموال خلفاء اسبانيا في المباني الفاخرة لتزيين المملكة فقط بل أنفق بعضها في عمارات نافعة فقد بنى الخليفة الحاكم قناطر وفتح طرقاً انشأ فيها محطات للسياحين وبنى في قرطبة مسجداً سماهُ باسمهِ وكان انشاؤهُ باهتمام المقلد في هذه المدينة بالضبط والربط وقيادة جيوش المملكة وبالتأمل فيما اسلفناهُ يعلم ان عرب اسبانيا اول الامم المتمدنة في القرن الحادي عشر بعد الميلاد بل كانوا يفوقون في ذلك العصر جميع امم اوربا الآن ميلهم الى الشقاق اثار بينهم نار الحرب وعجل دمار سلطانهم في ذلك الزمان المحتاجين فيهِ الى نفوذ كلمتهم ليتمكنوا من مقاومة نصارى اسبانيا

الانسان

كلام موجز في وحدة نوعهِ وتبادل حقوقهِ

لجناب صالح افندي حمدي

اقرّ علماء الطبيعة على وحدة نوع الانسان ولاسيما بعد ان اشتهر مذهب داروين . ومعلومٌ ان تقاليد الامم واخبار الملل والنحل تؤيد ذلك وتدلُّ على ان الانسان وُجد اولاً في اواسط اسيا اما في المكان الذي ارتأى ده كاترفاج العالم الانثربولوجي انهُ كان وطن الانسان الاول او في مايقاربهُ من البلدان الاسيويَّة . فالهنود يحولون نظرهم الى الشمال حيث جبلهم المقدّس المعروف باسم ميروث و يعتقدون بوجود جنة هناك وُجد فيها الانسان اولاً والفرس يجعلون مهد الجنس الآري شمالي بلادهم وقد سلّط عليهِ معبودهم اهريمان الشتاء عشرة اشهر فهاجر ذلك القطر هاربًا من البرد القارس وجاء الى بخارى ونحوها من الاقطار الجنوبيَّة . وتشفُّ الروايات السامية ونصوص التوراة عمَّا يقرب من ذلك فقد ذهب بعضهم ان نهر فيشون المذكور في التوراة هو نهر السند وان بلاد حويلة الموصوفة بجواريها الكريمة هي بلاد كشمير

والاخباريون من اهل الاسلام متفقون على ان هبوط آدم عليهِ السلام من الجنة كان